بقدر ما يكشف العلم يوما بعد يوم مستجدات في هذا الكون يتبين لنا من حقائق جديدة في عجائب خلق الله، ويزداد فهمنا للآيات الكريمة التي توجهنا للنظر في السماوات والأرض وفي أنفسنا والتدبر واستخلاص العبر.

ومن أحدث ما تكشفه الدراسات العلمية وتهتم بآفاقه غير المحدودة:

النفس البشرية، هذا العالم العجيب، والذي لا تنقضي عجائبه، النفس البشرية بتكوينها الخارجي، والداخلي، بطاقاتها الظاهرة والخفية، بمكوناتها الكبيرة والصغيرة.. من العضلات إلى أدق الخلايا وأخفاها.. وبالتفاعلات العجيبة التي تحدث فيها، ليست التفاعلات التي لا ندري حقيقتها.. ونعبر عنها بمصطلحات شتى مثل الموجات الكهربائية والمغناطيسية والسيالات العصبية.. وغير ذلك من المصطلحات التي تظهر لنا ما يدور في أعماق النفس البشرية من خواطر وانفعالات وصراعات.. فكل ما يمر به الإنسان من شوارد ذهنية وتفكير ومقارنة واختيار هو عمليات كبيرة معقدة لا يعلم كنهها إلا الله. ما زالت هي المميز الأكبر للإنسان عن الآلة، ومازالت دراسات الذكاء الصناعي وتطبيقات الكمبيوتر الهائلة تلهث وراء غبارها ولا تدرك منها ذرات قليلة..

وقد وجه القرآن الكريم قبل أن يقف الإنسان على هذه المدركات إلى تلك الحقيقة العظيمة، حقيقة ما في النفس البشرية من عجائب، فقال تعالى: ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ وبين جوانب مما يدور فيها، بما وضع في خلقها من قدرات، فقال: ﴿ ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها...﴾. فطاقة التوجه إلى الخير والشر، وقابلية التعديل بالتزكية أو بضدها جزء من طاقات كثيرة هائلة، تصل بالإنسان إلى موقع المسؤولية والمساءلة، وتجعل النفس الواحدة نفوسا متجاذبة، بعضها ينزع إلى هذا الجانب وبعضها ينزع إلى ذاك.. وبعضها يقبل وبعضها يرفض، وبعضها يسمو وبعضها يهبط، ويبقى لصاحبها موقع «الإرادة» ليعمل صالحا فيزكيها، أو ينزلق في أودية الهوى فيركسها.. ويصبح هذا الموقع مناط الثواب والعقاب.

ومن موقع الإرادة أيضا يقف الإنسان ليحاسب نفسه، وينظر فيما اجترح من أخطاء وآثام، وليكبح جوامح الشهوة المتفلتة والغرائز الطائشة، ويحملها على أن تخرج من طرق الغواية - إن تردت فيها - وتستوي على سواء السبيل إن لم تكن قد فعلت ذلك بعد.. ويستخدم معها كل ما يستخدمه مع الآخرين من وسائل التنبيه والتقريع والجدل والإقناع.. فتخفت جواذب الهوى، وتتحرر النفس من أغلال الشهوة المتفلتة، وتتمكن من ضبط الغرائز الطائشة، وتصبح قادرة على الارتقاء إلى ما

بقلم: د. عبدالباسط بدر

يريده من يريد أن يزكيها. وهذا الفعل - فعل محاسبة النفس والارتقاء بها إلى درجات التزكية، واحد من السلوكيات المهمة التي وجه الإسلام إليها، وحض المؤمنين عليها، وطبقها الأتقياء والصالحون، وكل من صحا فيه صوت الفطرة.. وما زالوا كذلك منذ عهد النبوة إلى يومنا هذا، وسوف تطبقه الأجيال القادمة -إن شاء الله- ما بقيت شعلة الإيمان حية في الصدور..

وقد سجل مبدعو الأدب الإسلامي هذه الظاهرة في نصوص كثيرة قديمة وحديثة وجعلوها شكلا من أشكال الموعظة المباشرة وغير المباشرة،فوجهوا الآخرين إليها ووجهوا أنفسهم، وحاوروها بصوت عال ليكون هذا الحوار سجلا لهم، ولكل من يصله أدبهم فيستفيد منه. ومن هؤلاء في عصرنا الحديث أمير الشعراء أحمد شوقي الذي وقف يخاطب نفسه في إحدى قصائده، ويخاطب من خلالها كل نفس بشرية تركن إلى الدنيا، وتجذبها جواذب الهوى فيها فتستغرق في لذائذها الغريبة، أو في السعي إليها، ولو لم تدركها، يكشف لها حقيقة ما تركن إليه، فما هو سارٌّ في ظاهره قد يحمل الألم الكبير، والرغبة فيها أمر مركب في الأعماق يقتضي وعيا وقوة وإرادة لمغالبتها.. يقول :

يانفس دنياك تخفي كل مبكية
وإن بدا لك منها حسن مبتسم
مخطوبة منذ كان الناس خاطبة
من أول الدهر لم تُرمل ولم تئم
يفنى الزمان ويبقى من إساءتها
جرح بآدم يبكي منه في الأدم
لا تحفلي بجناها أو جنايتها
الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

وينبه شوقي الذين أغمضت أعينهم بهارج الدنيا فلم يروا شيئا سواها إلى خطورة ما انزلقت أنفسهم إليه، فالدنيا في معطياتها يتقلب فيها المرء بين الفرحة والحزن، والراحة والضنى، ومع كل ما فيها من أوضار ما تزال تضلل نفوسا كثيرة وتجعلها متعلقة بها كل المتعلق. يقول :

أحمد شوقي

كم نائم لا يراها وهي ساهرة
لولا الأمانيُّ والأحلامُ لم ينم
طورا تمدك في نعمى وعافية
وتارة في قرار البؤس والنقم
كم ضللتك ومن تحجب بصيرته
إن يلق صابا يردْ، أو علقما يَسُم

ثم يلتفت شوقي إلى نفسه، يحاسبها على ما فرط منها، ويستعرض بذاكرته ما مضى فيجد عثرات يتمنى لو لم يقع فيها، تحولت إلى صفحات سوداء في سجل حياته، فيتألم منها، ويقر أنه أخطأ إذ استجاب لدواعي الهوى وترك نفسه ترتع في مرتع المعصيات حينا، تجري وراء لذائذ سرعان ما انقضت، وخلفت فيه الحسرة والندم. يقول في بوح ذاتي عال:

يا ويلتاه لنفسي راعها دَدُها
مسودَّة الصحف في مبيضة اللحمِ
ركضتها في مرتع المعصيات وما
أخذْت من حمية الطاعات للتخمِ
هامت على أثر اللذات تطلبها
والنفس إن يدعها داعي الصبا تهمِ

يستخلص شوقي من سجله الذاتي عبرا وعظات، يصوغها صياغة الحكم والأقوال المأثورة، ويطلقها للناس ليتدبروها، ويتملثوا بها، فهي حقائق نابعة من تجربة صادقة. يقول:

والنفس من خيرها في خير عافية
والنفس من شرها في مرتع وخمِ
تطغى إذا مُكنت من لذة وهوى
طغْيَ الجياد إذا عضت على الشكمِ
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه
فقوم النفس بالأخلاق تستقمِ

وبعد : فما أصدق شوقي في تصويره للنفس، وللطريقة الصحيحة في تقويمها، وما أعذب صياغته الشعرية لهذه الحقائق الإيمانية. ■